

البصرة من خلال كتب الرحالة في القرنين الثالث والرابع الهجريين - التاسع والعاشر الميلاديين

م. د. سناء عبد الله عزيز الطائي

جامعة الموصل - مركز الدراسات الإقليمية

مقدمة :

ثمة العديد من الدراسات والبحوث حول تاريخ البصرة في عصورها التاريخية المختلفة. وينبع الاهتمام بتاريخ البصرة، من أنها المدينة الأولى التي نصرت خارج الجزيرة العربية عام ١٤ للهجرة - ٦٣٥ للميلاد. كما أنها كانت في عصور الازدهار من أعظم المدن العربية والإسلامية من حيث الاستقرار الحضاري والعطاء الفكري. لذا أولى المؤرخون، البصرة اهتمامهم، ووضعوا الدراسات التي تتناول أحوالها العامة في إطار شامل. فضلا عن ظهور دراسات أخرى تدور حول جوانب محددة من تاريخها وضمن حقبة عديدة ولقطة الدراسات التي بحثت في ماكتبه الرحالة والبلدانيين عن البصرة ألينا على أنفسنا أن نتعرض بالدراسة لما كتبه عدد من الرحالة وخلال الفترة التي اشرنا إليها.

حاولنا في هذه الدراسة أن نقدم نبذة سريعة عن الرحالة والبلدانيين الذين كتبوا عن مدينة البصرة من خلال إشارتنا إلى مؤلفاتهم التي ترجع في تاريخها إلى القرنين الثالث والرابع الهجريين - التاسع والعاشر الميلاديين وحسب التسلسل التاريخي المعروف لتلك المؤلفات. ويعد أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري المتوفى ٢٧٩ للهجرة - ٨٩٢ للميلاد من أوائل الرحالة الذين كتبوا عن البصرة وقد قدم وصفا لها في كتابه المشهور: "فتوح البلدان". أما أحمد بن أبي يعقوب المشهور باليعقوبي المتوفى ٢٨٤ للهجرة - ٨٩٧ للميلاد صاحب كتاب اليعقوبي، فيعد من المصادر

البلدانية المهمة ليس في كتابة تاريخ البصرة وحسب بل في كتابة تاريخ المدن في الإسلام. ومما ينبغي التأكيد عليه أن اليعقوبي عرف بأسفاره العديدة التي وصل فيها إلى الهند من جهة المشرق والمغرب ومصر من جهة المشرق وبعد أن قام برحلاته عاد إلى بغداد موطنه الأصلي .

أما الرحالة الثالث فكان ابن الفقيه الهمداني المتوفى حوالي ٣٠٠ للهجرة - ٩١٢ للميلاد وله كتاب البلدان الذي ترك لنا فيه وصفا دقيقا لمدينة البصرة ومراحل تأسيسها وعمارتها .

كما تطرقنا إلى ما كتبه المؤرخ والرحالة المعروف ابن رسته وهو أبا علي أحمد بن عمر المتوفى أوائل القرن الرابع للهجرة العاشر للميلاد وهو صاحب كتاب : "العلاق النفيسة" واصله من أصفهان وقد قام برحلته الشهيرة إلى الحجاز وجاء البصرة ووصفها. وللأسف الشديد لم يبق من كتابه الخطير سوى جزء واحد هو الجزء السابع .

ويؤكد الأستاذ الدكتور عبد الجبار ناجي، وهو واحد أبرز المؤرخين العراقيين المعاصرين المهتمين بتاريخ المدن والبصرة بالذات، إن ابن رسته كان ذا ثقافة واسعة، وأنه قد يكون اطلع على كتاب المسالك للجيهاني، وكتاب المسالك لابن خردادبة .

ومن الرحالة العرب المشهورين الذين كان للبصرة موقع مهم في كتاباتهم ابن اسحق إبراهيم بن محمد الفارسي المعروف بالاصطخري والمتوفى في النصف الأول من القرن الرابع للهجرة - العاشر الميلادي . والاصطخري مؤلف معروف بمنهجه المتميز عن منهج غيره من المؤرخين والرحالة والبلدانيين، فكثيرا ما كان يؤكد بأنه يسير في الكتابة على خطة مرسومة وأبرز ما في هذه الخطة أنه كان ينظر إلى المنطقة التي يكتب عنها على أنها وحدة قائمة بذاتها ومعنى هذا أنه كان يراعي الموانع الطبيعية ويهمل المتغيرات الإدارية لذا جاء وصفه لما كتبه عن البصرة دقيقا ومطابقا للواقع في كثير من الأحيان .

ولا يمكن أن ننسى ابن حوقل صاحب كتاب صورة الأرض والذي يعد - بحق - من أبرز المؤرخين والرحالة والبلدانيين العرب، مع أن المعلومات المتوفرة عنه وعن سيرته ومؤلفاته محدودة وقد عرف بشغفه ومتابعته أخبار البلاد والسعي للوقوف على حال الأمصار ومنها البصرة وقيل أنه كان من الدعاة السياسيين للفاطميين في العراق. وقد وصف بأنه : "كثير الاستعلام" و"دقيق

الاستخبار "محباً للقراءة وللكتب المؤلفة". وقد تناول في كتابه : "صورة الأرض" ، أقاليم بلاد الإسلام ومنها إقليم البصرة ووصفها إقليماً وإقليماً وصقعا وصقعا .

ومن الرحالة العرب المشهورين محمد بن أحمد المقدسي البشاري المتوفى ٣٧٥ للهجرة - ٩٨٥ للميلاد . والمقدسي شامي الأصل وجد أن ما أسماه "المملكة الإسلامية" في القرن الرابع الهجري لم توصف وصفا كافيا من النواحي الجغرافية لذلك قام برحلته وطاف المدن الإسلامية وجاء البصرة وترك لنا وصفا دقيقا للنباتات والأنهار والحيوانات والبحيرات وألف كتابه : "أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم" وفيه ترك وصفا للبصرة عرف بدقته وموضوعيته مما يجعلنا نفخر بجهده وجهد من سبقه من المؤرخين والرحالة والبلدانيين وبقينا ان اختصاصات أولئك الرحالة لم تقتصر على جانب معين من المعرفة وإنما اتسعت لتشمل جوانب عديدة أخرى اختلط فيها التاريخ بالجغرافية والاقتصاد بالفلسفة وتلك كانت مواصفات أولئك الافذاذ من علمائنا ومؤرخينا وهذا مما جعل كتاباتهم وما تركوه لنا من كتب ومؤلفات بلدانية تعد مصادر أساسية من مصادر دراسة تاريخ المدن في الإسلام ومنها مدينتنا العزيزة البصرة .

تسمية البصرة :

كان للبصرة أسماء كثيرة سمية بها منها (الخريبة)^(١) ، بسبب وجود مدينة قديمة خربه في موقع بناء مدينة البصرة وذكر اليعقوبي^(٢) في كتابه البلدان أن تسمية البصرة جاءت لأنها كانت معروفة بحجارتها الرخوة المائلة الى البياض ، فإذا حنقوا الهاء قالوا بصر بكسر الباء وقالوا في البصرة بصري وبصري .

في حين لم يذكر ذلك ابن الفقيه وابن رسته والاصطخري وابن حوقل . أما المقدسي^(٣) فيذكر انه اشتق اسمها من الحجارة السود وقيل الحجارة الرخوة .

تمصير المدينة :

لقد كانت البصرة هدفا متميزا من أهداف حركة الفتوحات العربية الإسلامية ، فلقد أرسل الخليفة أبو بكر الصديق (رض) إلى خالد بن الوليد وهو باليمامة يأمره بالمسير إلى العراق ،

والبدء بالابلة أي منطقة البصرة حيث كانت قوات المثنى بن حارثة الشيباني تقاتل في تلك المنطقة، وهي القوة الرئيسية التي كانت تقاتل في العراق، وعندما قدم خالد الابلة فرق جنده ثلاث. ولم يجمع قواته على طريق واحدة، وكان على مقدمته المثنى بن حارثة الشيباني، وبعده عدي بن حاتم الطائي، وجاء خالد بن الوليد بعدهما. وواعدهم عند الحفير وهو أول منزل من البصرة لمن يريد مكة المكرمة وهو من أقوى مناطق الفرس وأشدّها شوكة، وعندما سمع الفرس أن المسلمين تواصلوا عند الحفير، قام هرمز، وهو أمر رقاد الفرس - فسبقهم إلى الحفير ونزل بها واتخذ تشكيلات القتال، واقترب الرجال بالسلاسل لنلا يفروا. فلما علم خالد بأخبار الفرس مال بالناس إلى كاظمة فسبقه هرمز إليها، وجاء خالد ونزل على غيرها وقال لأصحابه: ((ليصبرن في الماء لأصبر المفرقين وأكرم الجندين)). وقاتلهم خالد بن الوليد قتالا شديدا فما ارتفع النهار حتى انهزم الفرس.

وتعد البصرة، الجبهة الثانية التي كانت تستهدف مشاغلة الفرس ومنعهم من إمداد القوات الفارسية الرئيسية التي تقاتل العرب في جبهة الكوفة، غير أن واجباتها سرعان ما اتسعت، وامتدت لتقوم بفتح إقليم الاحواز ثم الأقاليم الواقعة في وسط وجنوب شرق الهضبة الإيرانية^(٤). لقد وردت عدة روايات عن اختيار الرقعة التي بنيت عليها البصرة فيذكر البلاذري^(٥): "حدثني علي بن المغيرة الأثرم عن أبي عبيدة قال: لما نزل عتبة بن غزوان الخريبة، كتب إلى عمر بن الخطاب يعلمه نزوله إياها وأنه لا بد للمسلمين من منزل يشتون به إذا شتوا، ويكنسون فيه إذا انصرفوا من غزوهم فكتب إليه أجمع أصحابك في موضع واحد وليكن قريبا من الماء والرعى واكتب إلي بصفته، فكتب إليه أنني وجدت أرضا كثيرة القصب في طرف البر إلى الريف ودونها مناقع فيها قصباء، فلما قرأ الكتاب، قال: هذه أرض نظرة قريبة من المشارب والمراعي والمحتطب، وكتب إليه أن انزلها الناس، فأنزلهم إياها، فبنوا مساكن بالقصب وبنى عتبة مسجدا في قصب، وذلك في سنة أربع عشر".

ويقول الاصطخري^(٦) "فالبصرة مدينة عظيمة لم تكن في أيام العجم، وإنما اختطها المسلمون أيام عمر بن الخطاب، ومصرها عتبة بن غزوان، وهي خطط وقبائل كلها، ويحيط بغربها البادية مقوسا".

أما بن حوقل^(٧) فيذكر نفس كلام الاصطخري حرفياً، ويذكر المقدسي^(٨) في كتابه: "أحسن التقاسيم" أن البصرة قصبة سرية أحدثها المسلمون أيام عمر، كتب إلى صاحبه ابن مدينة بين فارس وديار العرب وحد العراق، على بحر الصين فاتفقوا. ونزلها العرب ثم مصرها عتبة بن غزوان". والظاهر أن عتبة بن غزوان قد تنقل في عدة مواقع عند قدومه إلى أن استقر في الموضع الذي بنيت فيه حول المسجد الجامع، ويبدو أن المقاتلين اتخذوا أول مقام لهم على شاطئ دجلة، ثم تنقلوا غرباً إلى أن استقروا وبنوا البصرة.

خطط البصرة :

قسمت البصرة عند تأسيسها إلى خطط سكنت فيها كل عشيرة منطقة سميت باسمها كما هو المعتاد، فقد قال البلاذري^(٩) : "حدثني محمد بن سعد عن الواقدي في إسناده، قال كان عتبة بن غزوان مع سعد بن أبي وقاص، فكتب إليه عمر أن اضرب قيروانك بالكوفة ووجه عتبة بن غزوان إلى البصرة فخرج في ثمانمائة فضرب خيمة من أكسية وضرب الناس معه، وأمدّه عمر بالرجال، فلما كثروا بنى رھط منهم سبع دساكر من لبن منها بالخريبة اثنتان وبالزابوقة واحدة وفي بني تميم اثنتان وفي الازد اثنتان".

ويفهم من النص المتقدم أن عتبة بن غزوان عندما قدم منطقة البصرة قام ببناء الدساكر السبع فيها في حين يشير الدكتور قحطان عبد الستار الحديثي^(١٠) في بحثه "تحرير البصرة وتمصيرها" والمنشور ضمن موسوعة البصرة الحضارية أنه عندما قدم عتبة البصرة كانت فيها سبع دساكر.

مسجد البصرة :

يعد المسجد أول وحدة عمرانية قام ببنائها مؤسس المدينة عتبة بن غزوان، وقد شغل موضعا مركزيا وسطا في هيئة المدينة الطوبوغرافية، ولم يكن في بداية أمره بناءا معقدا وقد اكتفى عتبة بن غزوان بعد حصوله على موافقة الخليفة عمر بن الخطاب (رض) في تمصيرها، قام

بينائه بالقصب ألا انه مع مرور الزمن وتطور العمران أعيد بناءه باستخدام اللبن والأجر. فضلا عن إدخال بعض التحسينات العمرانية فيه ومن بينها مجموعة من الأساطين الضخمة ، والتي عملت من الحجارة الصلبة وجلبت من جبال الاحواز. فيذكر لنا البلاذري^(١١) : " ثم استعمل معاوية بن أبي سفيان زيادا على البصرة زاد في المسجد زيادة كثيرة وبناه بالأجر والجص وسقفه بالساج " ، وقال : " لا ينبغي للأمام أن يتخطى الناس فحول دار الأمانة من الدهناء إلى قبلة المسجد فكان الأمام يخرج من الدار في الباب الذي في حائط القبلة ، وجعل زياد حين بنى المسجد ودار الأمانة يطوف فيها وينظر إلى البناء ثم يقول لمن معه من وجوه أهل البصرة أترون خللا فيقولون ما نعلم بناء احكم منه فقال بلى هذه الأساطين التي على كل واحدة منها أربعة عقود لو كانت أغلظ من سائر الأساطين ، وروى عن يونس بن حبيب النحوي ، قال : لم يوت من تلك الأساطين فقط تصديع ولا عيب ، وقال حارثة بن بدر الغداني ، ويقال بل قال ذلك المجاشعي :

بنى زياد لذكر الله مصنعه من الحجارة لم تعمل من الطين

لولا تعاون أيدي الأنس ترفعها إذا قلنا من أعمال الشياطين

وقال الوليد بن هشام بن قحذام لما بنى زياد المسجد جعل صفته المقدمة خمس سوار ، وبنى منارته بالحجارة ، وهو أول من عمل المقصورة ونقل دار الأمانة إلى قبلة المسجد ، وكان بناؤه إياها لبن وطين حتى بناها صالح بن عبد الرحمن السجستاني مولى بني تميم في ولايته خراج العراق لسليمان بن عبد الملك بالأجر والجص وزاد فيه عبيد بن زياد وفي مسجد الكوفة فبنى عتبة مسجدا من قصب ، وذلك في سنة أربع عشرة فيقال انه تولى اختطاط المسجد بيده ويقال اختطه حجر بن الأدرع البهزي بن سليم ، ويقال اختطه نافع بن الحارث بن كلدة حين خط داره ، ويقال بل اختطه الأسود بن سريع التميمي ، وهو أول من قضى فيه ، فقال له مجاشع ومجالد أبناء مسعد رحمه الله شهرت نفسك فقال : لا أعود ، وبنى عتبة دار الأمانة دون المسجد في الرحبة التي يقال لها اليوم رحبة بن هاشم ، وكانت تسمى الدهناء وفيها السجن والديوان وكانوا إذا غزوا نزعوا ذلك القصب وحرموه ووضعوه حتى يرجعوا من الغزو ، فإذا رجعوا أعادوا بناءه فلم تزل الحال كذلك "

وقال: دعوت الله أن يرزقني الجهاد ففعل، ودعوته أن يرزقني بناء مسجدي الجماعة بالمصريين ففعل، ودعوته أن يجعلني خلفاً من زياد ففعل.

أما اليعقوبي^(١١) فقد أتى بمعلومات مختصرة ليست كالتي قدمها لنا البلاذري حيث قال "وأول من اختط البصرة عتبة بن غزوان في خلافة عمر وكانت يومئذ تسمى أرض الهند فكتب إلى سعد بن أبي وقاص ... ، ونزل عتبة سنة ١٩ ومصرها وبنى مسجدها من قصب وبنى دار أمارتها دون المسجد في الرحبة التي يقال لها رحبة بني هاشم وكانت تسمى الدهناء وفيها الديوان والسجن وحمام الأمراء فلما ولي أبو موسى نزع القصب وبنى المسجد وكذلك دار الإمارة وبناء زياد بالأجر والجص وسقفه بلساج.

الأنهار:-

كان موقع البصرة الطبيعي أهمية كبيرة عند اختيارها، ومما زاد في أهميتها الحربية والاقتصادية ووفر لها الحماية والاستقرار هو وجود عدد من الأنهار القريبة منها والتي أعطتها زيادة في التحصينات الطبيعية، أذ تعد الأنهار من التحصينات الطبيعية هذا فضلاً عن دورها في تأمين مياه الشرب للجيش الكبيرة وخيولهم، ويذكر لنا البلاذري^(١٢) "وحدثني الأبرم عن أبي عبيدة، قال قاد أبو موسى الأشعري نهر الأبله من موضع الاجانة إلى البصرة، وكان شرب الناس قبل ذلك من مكان يقال له دير قاووس فوهته في دجلة فوق الأبله بأربعة فراسخ يجري في سباح لاعمار على حافاته، وكانت الأرواح تدفنه، قال ولما حفر زياد فيض البصرة بعد فراغه من أصلح نهر الأبله قدم عامر من خراسان فلامه وقال: أردت أن تذهب بشهرة هذا النهر وذكره، فتباعد ما بينهما وبين أهلها بذلك السبب، قال أبو عبيدة: كان احتقاره الفيض من لدن دار فيل مولى زياد وحاجبه إلى موضع الجسر". وروى محمد بن سعد عن الواقدي وغيره أن عمر بن الخطاب أمر أبا موسى بحفر النهر الآخر وأن يجريه على يد معقل بن يسار المزني فنسب إليه، ... وقال الوليد بن هشام القحطامي وعلى بن محمد بن أبي سيف المدائني، كلم المنذر بن الجادرود العبدي معاوية بن أبي سفيان في حفر نهر ثان، فكتب إلى زياد فحفر نهر معقل، فقال

قوم: جرى على يد معقل بن يسار فنسب إليه، وقال آخرون بل أجراه زياد على يد عبد الرحمن إلى أبي بكر أو غيره، فلما فرغ منه وأرادوا فتحه بعث زياد معقل بن يسار ففتحته تبركا لأنه من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم..”

وقالوا: ”نهر ديبس نسب إلى رجل فصار يقال له ديبس كان يقصر الثياب عليه،... وحفر عبد الله بن عامر نهره الذي عند دار فيل، وهو الذي يعرف بنهر الاساوره^(١٤). وقال بعضهم الاساوره حفره، ونهر عمر: نسب إلى عمر بن أبي سفيان، ونهر أم حبيب نسب إلى أم حبيب بنت زياد، وكان عليه قصر كثير لأبواب قسيمي الهزاردر..”

”ونسب نهر حرب إلى حرب بن سلم بن زياد.. والنهر المعروف ببيزندان: نسب إلى يزيد بن عمر الاسيدي صاحب شرطة عدي بن ارقطة، وكان رجل أهل البصرة في زمانه” وقالوا: اقطع عبد الله بن عامر بن كريض عبد الله بن عمير بن عمر بن مالك الليثي وهو أخوه لأمه دجاجة بنت أسماء بن الصلت السلمية ثمانية آلاف جريب^(١٥) فحفر لها النهر الذي يعرف بنهر ابن عمير، قالوا: وكان عبد الله بن عامر حفر نهرام عبد الله دجاجة ويتولاه غيلان بن خرشنة الضبي

”ونهر سلم نسب إلى سلم بن زياد بن أبي سفيان، وكان عبد الله بن عامر حفر نهرًا تولاه نافذ مولاة فقلب عليه فقيل نهر نافذ”

”ونهر حميدة نسب إلى امرأة من آل عبد الرحمن بن سمرة بن حبيب بن عبد شمس يقال حميد وهي امرأة عبد العزيز بن عبد الله بن عامر”

”وقال الفحلومي نهر مرة لابن عامر ولي حفره مرة مولى أبي بكر الصديق فقلب على ذكره، وقال أبو اليقضان وغيره: نسب نهر مره إلى مرة ابن أبي عثمان.

”نهر بشار نسب إلى بشار بن مسلم بن عمرو الباهلي أخي قتيبة”

”ونهر فيروز نسب إلى فيروز حصين، ويقال إلى باشكاركان يقال له فيروز وقال نسب إلى فيروز مولى ربيعة بن كلدة الثقفي”

”ونهر العلاء نسب إلى العلاء بن شريك الهذلي”

"ونهر ذراع نسب إلى ذراع النمري من ربيعة وهو أبو هارون بن ذراع"

"ونهر حبيب نسب إلى حبيب ابن شهاب الشامي التاجر في قطيعة من زياد ويقال من عثمان ،

ونهر ابن بكرة . نسب إلى بكرة بن زياد"

ونهر الراء صيدت به سمكة تسمى الراء فسمي بها"

"ونهر مكحول نسب الى مكحول بن عبيد الله الاحمسي وقال القحذمي نهر مكحول نسب إلى

مكحول بن عبد الله السعدي"

"شط عثمان اشتراه عثمان بن أبي العاص الثقفي من عثمان ابن عفان بمال له بالطائف ويقال

انه اشتراه بدار له بالمدينة"

"نهر الأرحاء لأبي عمرو بن أبي العاص الثقفي"

"نهر أبي الخصيب نسب إلى أبي الخصيب مرزوق مولى المنصور أمير المؤمنين .

ونهر الأمير بالبصرة حفره المنصور ثم وهبه لابنه جعفر فكان يقال نهر أمير المؤمنين ثم قيل نهر

الأمير"

"نهر ربا للرشيد نسب الى سورجي والقرشي.."

"نهر مقاتل نسب الى مقاتل ابن حارثة بن قدامه السعدي"

"وعسيران نسب إلى عبد الله بن عمير الليثي"

"وسيحان كان للبرامكة وهم سموه سيحان"

"والجوبيرة صيد فية الجوبيرة فسمي بذلك"

"نهر البنات ، بنات زياد أقطع كل بنت ستين جربا"

"وخالدان نسب إلى خالد بن عبد الله بن خالد بن اسيد ابن أبي العيص بن أمية"

"نهر يزيد الاباضي وهو يزيد بن عبد الله الحميري"

"واحتفر بلال نهر بلال وجعل على جنبه حوانيت ونقل إليها السوق"

"حفر يزيد بن المهلب نهر يزيد في قطيعة لعبيد الله بن أبي بكرة"

"نهر ابن أبي بردعة نسب إلى أبي بردعة بن عبيد الله بن أبي بكرة"

"نهر سلم نسب إلى سلم بن عبد الله بن أبي بكرة"

"النهر الرياحي نسب إلى رياح مولى آل جدعان"

"واحتفر كثير بن عبد الله السلمي وهو أبو العاج عامل يوسف بن عمر الثقفي على البصرة نهرا

من أنهر ابن عتبة إلى الخستل فنسب إليه"

"نهر أبي شداد نسب إلى أبي شداد مولى زياد"

"ونهر ماسوران كان فيه رجل شرير يسعى بالناس ويبحث عليهم فنسب النهر إليه"

"نهر التوت قطيعة عبد الله ابن نافع بن الحارث الثقفي"

"كان نهر سليمان بن علي لحسان ابن أبي حسان النبطي".

"دجلة كانت لعبد الرحمن بن أبي بكرة"

"نهر أبي سبرة الهذلي"

"نهر جعفر كان لجعفر مولى سلم ابن زياد ، وكان خراجيا"

"نهر عدي كان خورا من نهر البصرة حتى فتقه عدي بن ارمطة الفزاري عامل عمر ابن عبد العزيز"

وينكر اليعقوبي^(١٦) "كان لدجلة البصرة خور والخور طريق للماء لم يحفره احد يجري اليها فيه

ماء الأمطار ويتراجع ماؤها فيه عند المد وينصب في الجزر وكان طوله قدر فرسخ ونهر الإجانة

احتفره أبو موسى قادة ثلاثه فراسخ حتى بلغ به البصرة فكان طول نهر الأبله أربعة فراسخ

"حفر زياد نهر الأبله ونهر معقل .. ونهر عدي ونهر بلبل وباب الاصفهاني حفره مطيع

أما ابن رسته^(١٧) فيذكر ان النهروان هي خزانة أهل البصرة يجتمع فيها المياه وينبت فيها

القصب لمنافعهم ومنها سمكهم من الطري والمالح في نواحيها مزارع منها طعامهم ويخرج من هذه

البطائح انهار من ذلك نهر المرة ويصب هذا النهر في دجلة العواء ، ومن ذلك نهر يقال نهر أبي

الأسد وهو قريب من نهر المرة ويصب في دجلة العواء ويمتزج هذا الماء بماء البحر الذي يدخل في

دجلة العواء من المد ، ومن ذلك نهر في أسفل البطائح مما يلي قطر انس بن مالك يقال له نهر ابن

عمر بن عبد العزيز حفره في ولاية بني أمية ليعذب ماء أهل البصرة وطوله أربعة فراسخ من

أسفل البطائح إلى فيض البصرة ونهر ابن عمر يصب في نهر البصرة وما صار في فيض البصرة وقع

بن نهر الابلّة حتى يخرج إلى دجلة العوراء ثم يقع في بحر الهند فيذكر الاصطخري^(١٨) أن ذكر بعض أهل الأخبار قالوا أن انهار البصرة عدت أيام بلال بن أبي بردة فزادت على مائة ألف نهر وعشرين نهر، تجري فيها الزواريق، وقد كنت أنكر ما ذكر في عدد هذه الأنهار في أيام بلال بن أبي بردة... ولكل نهر ينسب به إلى صاحبه الذي احتفزه أو الناحية التي يصب فيها، وأشبه ذلك الاسامي... ولها نهر يعرف بنهر الابلّة طوله أربعة فراسخ ما بين البصرة والابلّة، وعلى حافتي هذا النهر قصور وبساتين متصلة... وعلى ركن الابلّة في نهرها خور عظيم، يعرف بخور الابلّة".

أما ابن حوقل^(١٩) فيقول ذكر بعض المؤلفين من أصحاب الأخبار أن انهار البصرة عدت أيام بلال بن أبي بردة، فزادت على مائة ألف نهر وعشرين ألف نهر تجري فيها الزواريق، وكنت أنكر ما ذكره من هذا العدد في أيام بلال حتى رأيت كثيرا من تلك البقاع، فربما رأيت في مقدار رمية سهم عدد من الأنهار صفارا تجري في جميعها السميريات ولكل نهر اسم ينسب به إلى صاحبه الذي احتفزه أو إلى الناحية التي يصب إليها ويفرغ ماؤه فيها..

"ومن مشاهير أنهارها نهر الابلّة وطوله أربعة فراسخ ما بين البصرة والابلّة... ويبدوان كلام ابن حوقل مشابه ومطابق لكلام الاصطخري أما المقدسي^(٢٠) فيذكر "الابلّة على دجلة عند فم نهر البصرة من الشمال الجامع اعلى القرية... وسائر المدينة انهار من جانبي دجلة عن يمين وشمال وجنوب شمال..

حمامات البصرة :

يرتبط إنشاء الحمامات العامة وتطويرها في المدن العربية الإسلامية بامرین أولهما الطهارة الواجبة في الدين الإسلامي والثاني هو الوعي الواضح والاستجابة الحقيقية للحاجات الحضريّة^(٢١) ومن الطبيعي أن تشيد الحمامات وتتميز البصرة بحماماتها الكثيرة.

فيذكر لنا البلاذري^(٢٢) "كان أول حمام اتخذ بالبصرة حمام عبد الله بن عثمان ابن أبي العاصي الثقفي، وهو موضع بستان سفيان بن معاوية الذي بالخريبة وعند قصر عيسى بن جعفر ثم الثاني حمام فيل مولی زياد، ثم الثالث حمام مسلم ابن أبي بكره وهو الذي صار لعمر بن مسلم الباهلي، فمكثت البصرة دهرًا وليس بها الا هذه الحمامات"

وحدثني المدائني قال ، أبو بكر لابنه مسلم : يا بني والله ماتلى عملا ومراك تقصر عن أخوتك في المنفعة ، فقال : أن كتمت على أخبرتكم ، وقال فاني أفعل ، قال : فاني اغتلت من حمامي هذا في كل يوم ألف درهم وطعاما كثيرا ، ثم أن مسلما عرض فاوصى إلى أخيه عبد الرحمن بن أبي بكره وأخبره بغلة حمامه فافشى ذلك واستاذن السلطان في بناء حمام ، كانت الحمامات لاتبنى بالبصرة إلا بأذن الولاة فاذن له ، فاستاذن عبيد الله بن أبي بكره فاذن له ، واستاذن الحكم بن أبي العاص فاذن له ، واستاذن سياه الاسواري فاذن له ، واستاذن الحصين ابن أبي الحر العنبري فاذن له واستاذنت ربطة بنت زياد فاذن لها ، واستاذنت لبابه بنت أوفى الجرش فاذن لها في حمامين احدهما في أصحاب البقاء ، والاخر في بني سعد واستاذن المنجاب بن راشد الصبي فاذن له ، وأفاق مسلم بن أبي بكره من مرضه وقد فسدت عليه غلة حمامة فجعل يلعن عبد الرحمن ويقول ما قطع الله رحمة ، وقال بعضهم وقد حصرته الوفاة

يارب قائلة يوما وقد لغبت كيف الطريق إلى حمام منجاب
يعني حمام المنجان بن راشد الضبي وقال عباس مولى بني أسامة :
ذكرت البند في حمام عمرو فلم أبرح إلى بعد العشاء
وحمام بلج نسب إلى بلج بن نشبة السعدي الذي يقول له زياد
ومحترس من مثله وهو حارس

أما اليعقوبي^(٢٣) فيذكر أن "أول حمام اتخذ بالبصرة حمام عبد الله بن عثمان بن أبي العاص ، وهو موضع بستان سفيان بن معاوية الذي بالخريبة ثم الثاني حمام فيل مولى زياد ثم الثالث حمام مسلم بن أبي بكره وحمام منجاب ينسب إلى منجاب بن راشد الضبي وقال الشاعر .

يارب قائلة يوما وقد لغبت كيف الطريق إلى حمام منجاب

كما وينكر اليعقوبي^(٢٤) أن هناك حمام خاص بالأمراء يقع في الرحبة التي يقال لها رحبة بني هاشم وكانت تسمى الدهناء ويظهر لنا انه كان هناك حمامات خاصة بالأمراء وحمامات خاصة بالعامّة .

أما المقدسي^(٢٥) فلم يذكر شيء عن حمامات البصرة سوى أنها حمامات طيبة .

الخاتمة:

أن نشوء المدن وتطورها ، يعد ظاهرة حضارية مرت بها المجتمعات في العالم ، وقدر لبعض من تلك المدن أن تتقدم وتشتهر بفعل عوامل دينية أو اقتصادية أو سياسية وظهرت لنا عدة مؤلفات تختص بدراسة المدن وخططها ومساجدها وأسواقها وقصورها وأنهارها ، وتعتبر كتب الرحلات من المصادر المهمة لدراسة تاريخ تلك المدن وذلك لما قدمته لنا من معلومات مهمة ، فعلى الرغم من أن أهداف كل رحلة تختلف عن أهداف الرحلات الأخرى إلا أنها تعكس مدى اهتمامهم بتلك المدن التي زاروها وتعكس تلك المؤلفات مدى دقة وانتباه كل واحد منهم .

ونحن من خلال دراستنا لاحظنا أن هناك فرقا بين رحالة وآخر في المعلومات في حين تطابق معلومات أخرى وقمنا بتقديم المعلومات بطريقة أفقية وذلك لأننا رأينا فيها فائدة أعم وأشمل مما لو قدمنا الدراسة بطريقة طولية فلقد قمنا بذكر خطط المدينة والمساجد والحمامات وألا أفضل من ذكر مقالته البلاذري مثلا كاملا ثم مقالته اليعقوبي وهكذا وعسى أن تكون الفائدة أعم وأشمل من أجل إعطاء أمكانية أكبر لمقارنة تلك النصوص فيما يخص موضوع بحثنا

الهوامش والمصادر

- (١) البلاذري، احمد بن يحيى بن جابر ت (٢٧٩هـ / ٨٩٢م) ، فتوح البادان ، تحقيق رضوان محمد رضوان ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٩٧٨م ، ٣٤١ .
- (٢) احمد بن أبي يعقوب اسحق بن جعفر ت (٢٨٤هـ / ٨٩٧م) ، البلدان ، النجف ، الطبقة الحيدرية ، ١٩١٨م ، ١٨٧ .
- (٣) محمد بن احمد بن أبي بكر المعروف بالبشاري ت (٣٧٥هـ / ٩٨٥م) ، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، لندن ، مطبعة بريل ، ١٩٠٦م ، ١١٨ .
- (٤) للمزيد ينظر موسوعة البصرة الحضارية التاريخية ، جامعة البصرة ، المركز الثقافي ، مطبعة التعليم العالي ١٩٨٩ ، ٧-١٣ .
- (٥) فتوح البلدان ، ٣٤١ .
- (٦) إبراهيم بن محمد ت (٣٤٦هـ / ٩٥٧م) ، المسالك والممالك ، تحقيق محمد جابر عبد العال الحسيني ، مراجعة محمد شفيق غربال ، الجمهورية العربية المتحدة ، وزارة الثقافة والإرشاد القومية ، ١٩٦١ ، ٥٦ .

- (٧) أبو القاسم النصيبي ت (٣٦٧هـ/٩٧٧م) ، صورة الأرض ، بيروت ، دار مكتبة الحياة ، ١٩٧٩م ، ٢١٢.
- (٨) أحسن التقاسيم ، ١١٧.
- (٩) فتوح البلدان ، ٣٤٥.
- (١٠) الحديثي ، المصدر السابق ص ١٠.
- (١١) فتوح البلدان ٣٤٢.
- (١٢) البلدان ، ١٨٨.
- (١٣) فتوح البلدان ، ٣٥٢-٣٦٦.
- (١٤) الجراجمة : هي لفظة أطلقت على الجراجمة الذين ينتسبون في تسميتهم على مدينة جرجومة الواقعة على جبل اللكام ، وكانوا يشكلون أقلية في المنطقة قبل الفتح الإسلامي ، البلاذري ، فتوح البلدان ، ١٧٣ ، وينكر الاصفهاني أن الجراجمة يعودون في أصلهم إلى الفرس الذين قدموا مع سيف بن ذي يزن وكان يطلق عليهم عدة تسميات ففي البصرة الاساورة وفي الجزيرة الخضارمة وفي الكوفة الاحامرة في الشام الجراجمة ، أبو الفرج الاصفهاني ، كتاب الأغانى ، بيروت ، دار صعب ، ج ١٦ ، ص ٧٨.
- (١٥) الجريب : هو اسم لمقدار من الأرض . وهو مكيال إسلامي يستعمل أثناء العصور الإسلامية وهو يساوي أربعة أقدرة أي ٤٨ صاعاً وعند الحنفية الجريب يساوي ١٥٦ كيلو غرام وعند الجمهور ٩٧،٩٢ كيلو غرام ، للمزيد ينظر الحموي ، معجم البلدان .
- (١٦) البلدان ، ١٨٨-١٩٠.
- (١٧) الاعلاق النفيسة ، ٩٤.
- (١٨) المسالك والممالك ، ٥٧.
- (١٩) صورة الأرض ، ٢١٢.
- (٢٠) أحسن التقاسيم ١١٨.
- (٢١) العلاف ، الأستاذ الدكتور إبراهيم خليل ، حمائم الموصل في العهد العثماني .
- (٢٢) فتوح البلدان ، ٣٤٨-٣٤٩.
- (٢٣) البلدان ، ١٨٨-١٨٩.
- (٢٤) البلدان ، ١٨٨.
- (٢٥) أحسن التقاسيم ، ١١٨.